العالم العربي والإسلامي بين الخوف والإصلاح

عبد الله العلوي

إنّ قضية الإصلاح في العالم العربي والإسلامي في العصر الحديث هي قضية تؤرق الكثير من المفكرين العرب والمفكرين الإسلاميين، وربما هي من القضايا التي يجب الحديث عنها بشفافية مفرطة، والتصريح فيها جائز مباح، لأنّ المجتمع العربي والإسلامي أصبح يحتاج إلى إصلاح في كيانه وتركيبته، والفكر الذي ينبني عليه، والتقهقر الذي ضرب التطور في الوطن العربي والإسلامي، هذه هي الفكرة التي أراد رضوان السيد في مقاله بمجلة التسامح «الإصلاح والمصالحة: سؤال النهوض وسؤال الأولويات» أن يشرحها.

يُعاني العالم العربي والإسلامي في العصور المتقدمة من مشكلة الخوف، الخوف من أي شيء يأتي من الآخر، أيا كان هذا الآخر سواء من المشرق أو من المغرب، وهذا يجعله في غنى كبير عن التطلع لما عند الآخر، فتخمر فكرة الحروب الصليبية في أذهان المسلمين بات يجعلهم لا يثقون بما يأتي من عندهم، وهذا أمر يمكن أن نقول إنّهم يُعذرون فيه، في المقابل نقول بأنّهم يلامون عليه، فالعذر يكمن في التراكمات التي حملتها الحملات الصليبية، ثم من الاحتلالات الغربية التي سيطرت على الأوطان العربية والإسلامية، ثم تبعها عملية الانتدابات، وما آلت إليه من قتل للمسلمين والعرب، مما جعلهم يكرهون هذه الأوطان وما يأتي منها من كل النواحي، حتى خرجت في تلك الفترة وما زالت مُسميات أمثال الغزو الفكري، والاستشراق وغيرها من الألفاظ، وهذه في الحقيقة هي خطة موجودة في أذهان المحاربين، حتى قيل إنّ الغرب لم يستطع أن يُدمر الوطن العربي إلا من خلال فكره وعاداته وأخلاقه، أما اللوم فعلى عدم مقدرة العالم العربي والإسلامي على أدلجة هذا الفكر، بحيث يأخذ منه المفيد ويترك العفن على جانب، ثم ضياع المربي الديني الروحي هو في حد ذاته سبب كبير في بقاء هذه المشكلة، ومن الأسباب المهمة غياب دور المؤسسات التعليمية الحقيقي، وكل ذلك ينبي على رغبة الحكومات في التغيير في فكر شعبها، وتطويره، فالمشكلة لا يمكن أن نحلها من طرف واحد، فالحكومة والفرد والمجتمع والمؤسسة التعليمية كلهم يجب أن يتعاونوا من أجل القضاء على هذه المشكلة.

وهناك دعوى بأن الاختلاف هو سبب مباشر في الظلام الذي يخيم على العرب عامة وعلى المسلمين خاصة، فالعالم العربي والإسلامي يعاني من الاختلاف المتواصل سواء في الإسلام ذاته أو في الديانات عامة، فيوجد في الوطن العربي المسلمين والمسحيين واليهود، ويوجد في الإسلام مذاهب مُتعددة، فهناك السنة وينقسمون إلى أربعة مذاهب، وهناك الشيعة وينقسمون إلى اثني عشر مذهبًا يلقبون بالاثني عشرية، وهناك الإباضية، وهذا الاختلاف كان الأولى به أن يجعلنا نبدع لا أن يجعلنا نتقهقر للوراء، فالصين وحدها نجد فيها من الأديان والمذاهب والأفكار ما لا يستطيع الشخص عدها، في المقابل لم نجد هناك اقتتالا ولا تصادمًا في الفكر، فكل شخص يعيش وفق ما يُريد ويفكر وفق ما يعتقد، شريطة ألا يضر الآخر بفكره وديانته، فحريته الدينية والفكرية مكفولة في القوانين والدساتير، وفوق هذا الاختلاف لم نسمع أن هناك تقاتلا بين الأطراف المختلفة.

في الحقيقة لا يوجد اختلاف في الوطن العربي بين الطوائف الإسلامية بمعنى ذلك الاختلاف الحقيقي، ولو جئنا لأوجه التوافق بين المذاهب الإسلامية لوجدناها متفقة في نواحي الأساس الذي قام عليه الإسلام، فكلهم يعبدون ربًا واحدًا، وكلهم يقرأون كتابًا واحدًا، وكلهم يؤمنون بنبوة النبي المصطفى محمد، وكلهم يفعلون نفس الحركات في الصلاة، باستثناء القليل منها، وكلهم يريدون رضا ربهم، وكلهم يوقنون

بأنّ هناك جنة وهناك نارا، فالاختلاف في بعض الأمور البسيطة التي يمكن جهلها، والإسلام انبنى على أركان، والإيمان انبنى على أركان وكل الطوائف متفقة على تطبيقها، فقط هناك اختلافات في بعض الفرعيات التي تُعتبر مكملة للدين، فالمشكلة هنا أنّ المسلمين أنفسهم لا يهتمون بالتوافق فيما بينهم بل يهتمون بالاختلاف فقط.

من المستحيل المحض القضاء على الاختلاف، فالاختلاف أمر طبيعي بين بني الجنس البشري، فلا يمكن أن يتفق كل البشر على فكرة معينة، بل الاختلاف أمر إنساني فطري، وهذا ما نص عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ * وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا * وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ * إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ» (سورة الحج ٤٠)، ولكن في المقابل يجب ألا يكون هذا الاختلاف تناحرا.

لقد فعل اختلاف المذاهب في الوطن العربي الأفاعيل، فأصبح التقاتل فيما بينهم وتكفير بعضهم البعض أمرًا طبيعيًا جدًا، وسقطت الثقة فيما بينهم، ولا يمكن القول بأن الاختلاف المذهبي بمعزل عن المشاكل في المنطقة العربية والإسلامية بل هو لب المشكلة في تأخر الوطن العربي، وأبرز مثال على ذلك هو تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام الملقبة بداعش، والتفجيرات التي وقعت في السعودية والكويت وتركيا ومصر والبحرين، والتخطيط في كل الأوطان العربية من أجل قضية واحدة هي قضية الاختلاف، وكل طائفة ترى أنها على صواب، وغيرها على باطل، أي إما أن تكون معي أو تكون مع غيري فأقتلك، وهي ذاتها المشكلة التي كانت أوروبا تعاني منها في العصور الوسطى أو عصور الظلام.

ويُعد التراث طرفًا أو سببًا من الأسباب التي لا يمكن اختفاؤها عن الساحة، فجل الأفكار التي يعتنقها التكفيريون والمجاهدون في الوطن العربي هي أفكار تم أخذها من التراث الديني، وهم هنا مطبقون لها، وعموم القول إنّ التراث ليس شيئًا مقدسًا بل هو كلام بشر يمكن أخذه ورده، ولكل دولة زمان ورجال، فما يصلح في تلك الحقبة الزمنية قد لا يصلح في هذه الفترة، فيمكن صياغة التراث ويمكن نقده، فالتجديد والتغيير لا يعني أن ننسف أعمال السابقين لأنّ الإسلام هو رسالة عالمية متجددة غير جامدة.

والإصلاح في المجتمع العربي يعتمد على الدولة التي تمثل السلطة السياسية، والمجتمع الذي يربي الأجيال وفق المعطيات الإنسانية والروحية والدينية، والدين الذي يقوم على علاقة بين الإنسان وربه، ولا يمكن الاستغناء عن بعضها. عليه، يجب أن يفقه السياسيون أن الدين هو كيان اجتماعي لا يمكن أن تُغيره السياسات، فدورهم هو دور احتضان فكر لا احتضان قتل، فالنزاع الحاصل في الدول العربية هو صراع بين الدين والدولة، فالإسلام يريد أن يقيم دولة إسلامية، والدولة لا تريد هذا، نظرًا للتجارب التاريخية في سيطرة الدين على الدولة ومثلها سيطرة الكنيسة على الحكم في فرنسا، ومثلها سيطرة الإسلاميين على الحكم في الجزائر، منها أخذ المسلمون على عاتقهم أن ينقذوا الإسلام من الدول، وهذا مما جعل العمليات الإرهابية في الوطن العربي تستشري بشكل كبير، فالتفاهم بين الدولة والدين هو مبدأ يجعل المنطقة في استقرار، ولا ننسى دور المؤسسات الدينية كالمساجد ومدارس تحفيظ القرآن، وغيرها، لإشعال الكوامن الموجودة في دواخل الشباب المسلم، لا بالتحريض والتكفير وإنما بالإصلاح والاستنارة والتجديد لإخراج الإسلام بالصورة التي انبنى عليها.

وكي يخرج العالم العربي والإسلامي مما هو عليه الآن لا بد أن يقتنع بالمشاركة الفاعلة بين الطوائف المختلفة في المجالات كلها الفكرية والعلمية والثقافية والمجتمعية، ولا تكون المشاركة فقط في دولة واحدة أو مجتمع واحد بل من خلال الاستقطاب من المجتمعات الأخرى، والإسلام له تجارب في تاريخه أهمها هي صحيفة المدينة واتفاقية الخليفة عمر بن الخطاب مع أساقفة مصر، فيجب أن تكون للأمة الإسلامية شخصية مستقلة في كيانها، وبناء هذا الكيان لا يكون بالتطرف، ولا يكون في المقابل بالتبعية، وإنما بالوسط في التطبيق الحقيقي لمبادئ الدين، فأوروبا قامت على أنقاض أمم سابقة، وغالب ذلك على أنقاض الأمة الإسلامية في نهضتها وقوتها، فالعمل والعطاء هو طريق مهم من أجل النهوض والتجديد والإصلاح في المجتمعات العربية والإسلامية.

abdlla1991@gmail.com